

تعليقات ومناقشات

حتى العاطفة على غير مذكور

الدكتور عباس علي السوسوة

يهدف هذا البحث إلى دراسة هذه الظاهرة الشائعة في العربية الفصحى المعاصرة، ويحاول أن يتتبع جذورها في النصوص المكتوبة، في العربية المشتركة، منذ أن وجدت حتى الآن.

بداية لا بد من الإشارة إلى أن حتى في عربية عصر الاحتجاج (حتى عام ١٥٠هـ)، تأتي ^(١) ابتدائية وجارة، وناصفة للفعل المضارع، وعاطفة، وهي تفيد الغاية، كما تحمل ظلالاً دلالية من الجمع، أو التعظيم، أو التحقير، أو القوة، أو الضعف أو التعليل، بحسب السياق الذي ترد فيه.

وقد شاع بين المتأدبين أن أحد النحاة القدماء قال: (أموت وفي نفسي شيء من حتى). وهذا القول منسوب لأبي زكريا الفراء (٢٠٧هـ)، في مصدر متأخر، بتخفيف طفيف هو: (أموت وفي قلبي من حتى) ^(٢). ولم نجد القول في كتب الفراء التي نشرت، ولا في المصادر القديمة التي ترجمت له. وعلى كل حال إذا كان صاحب القول - أيّاً كان - يريد بذلك معاني حتى، فذلك لا يسلم له، إذ هو أمر ينطبق على كثير من الأدوات التي سماها القدماء حروف المعاني، كالباء مثلاً.

المهم أن العطف بحتى في عربية عصر الاحتجاج قليل. وآية ذلك أن القرآن الكريم قد خلا من حتى العاطفة. ذكر ذلك السيوطي ^(٣)، وعضيمة ^(٤).

وللعطف بحتى شرطان ^(٥): الأول: أن يكون الثاني جزءاً من الأول أو ما يتنزل منزلة البعض منه، مثل:

قام القومُ حتى زيدٌ
أكلت السمكة حتى رأسها
أسرع القومُ حتى حميرهم
والثاني: أن ما بعد حتى لا بد أن يكون عظيماً، أو حقيراً، أو قوياً، أو
ضعيفاً، بعكس ما قبلها. مثل:
مات الناسُ حتى الأنبياءُ
نهض الحجاجُ حتى المشاةُ
ضعف الناسُ حتى السلطانُ

على أن العطف بحثى في عربيتنا المعاصرة ليس قليلاً، ودونك الصحف
والمجلات والكتب لتتظر في أمثلتها الكثيرة. وقد تفرع عن هذا العطف عطفُ
حتى على غير مذكور سابق في الجملة مثل:

لم يستطيعوا حتى شراء ملابس لأولادهم.

لم تعد تحقق حتى النجاح المادي.

لا تقدم منها ولا حتى سبعة هدية.

وهذا النوع الأخير كثير في العربية الفصحى المعاصرة لكنه منعدم في
عربية عصر الاحتجاج لذلك كان طبعياً أن لا يتعرض النحاة له، سواء كانوا
متقدمين أم متأخرين. فأما المتقدمون فمعلوم أنهم لا يصفون ظاهرة لم يجدوها
أمامهم. وأما المتأخرون فلم يصفوا مادة لغوية جديدة، بل قصروا جهدهم على
تنظيم أحكام النحاة القدماء، وتهذيب مصطلحاتهم. ونحن إنما تعلمنا قواعد
الفصحى التي وقفت عند حدود عام ١٥٠هـ، فترتب على ذلك أن بعض
الباحثين إذا وقف على ظاهرة نحوية في الفصحى الحديثة لم يجد لها ذكراً عند
القدماء، عدّ ذلك من قبيل تأثير الترجمة عن اللغات الأوروبية الحديثة في العربية
المعاصرة، بطريق مباشر أو غير مباشر. فكأن العربية لا تتطور ذاتياً بالمعنى

العلمي المحايد للتطور - بل هي بحاجة إلى مصدر أجنبي حتى تتغير. ومما نحن بصددده بشأن هذه الظاهرة أن باحثاً رائداً في دراسة الفصحى المعاصرة وقف على جمل مثل (لم يقبلوا حتى الصمت) فعلق عليها بقوله (وقد شاع استخدام (حتى) على النحو السابق بتأثير اللغات الأجنبية، فهي تقابل في المثال السابق كلمة even في الإنجليزية)^(٦).

ونحن مع تسليمنا بوجود تشابه بين اللغات المختلفة سواء كانت من أرومة واحدة أو مختلفة - لا نرد هذا التشابه بالذات إلى التأثير بالإنكليزية، بل نقول: إن ظاهرة العطف بحتى على غير مذكور موجودة في الفصحى شعراً ونثراً منذ القرن الثالث الهجري على الأقل. والنص الذي يلغي الاجتهاد سيكون هو الحكم.

ونسبداً في متابعة هذه الظاهرة في العربية الفصحى المشتركة بعد عصر الاحتجاج باللغة، فنجدها عند الشاعر الأندلسي يحيى بن الحكم الغزال (ت ٢٥٥هـ) قال:

((أرى أهل اليسار إذا توفوا بسنوا تلك المقابر بالصخور
أبوا إلا مباحاةً وفخراً على الفقراء حتى في القبور))^(٧)

ففي البيت الثاني نرى أن البنية العميقة له: أبوا إلا مباحاةً وفخراً على الفقراء في كل شيء حتى في القبور. وبصح أن تكون: أبوا إلا مباحاةً وفخراً على الفقراء في كل شيء ومنها القبور.

ثم نجد الظاهرة عند عريب بن سعد القرطبي (ت بعد ٣٣١هـ: ((وقيل لصاحب الدار: اكتب جميع ما ذهب منك، فكتب حتى المكنسة والمقدحة))^(٨). والبنية العميقة للجملة الأخيرة: فكتب كل شيء حتى المكنسة والمقدحة.

وسنكتفي من الآن بعرض الشواهد المختلفة على ظاهرة العطف حتى على غير مذكور في الجملة في بنيتها السطحية، لكنها مفهومة من البنية العميقة عند قارئ هذه الشواهد.

فنجد هذه الظاهرة في شعر أبي الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ)، ومنها:
(فجاز له حتى على الشمس حكمه وبان له حتى على البدر ميسم)^(٩)

ويقول الشارح: ((ظهر اسمه على كل شيء حتى على البدر))

وقد أحسن الشارح في بيان هذه الظاهرة لكنه نسي أيضاً أن بنية الشطر الأول العميقة تعني: فجاز له حكمه على كل شيء حتى على الشمس.
ومن شعر المتنبي أيضاً:

(كتمتُ حبي حتى عنك تكرمةً ثم استوى فيك إسراري وإعلاني)^(١٠)

ويشرح ابن سيده البيت بما يوضح العطف غير المذكور، فيقول: ((أي كتمت حبي عن الأنام حتى عنك، وإنما كان كتمان تكرمة لك، ثم غلبنني فاستوى سري وجهري، أي أظهرتُ منه مثل ما كتمت))

كذلك نجد هذه الظاهرة في شعر محمود بن حسين الشهير بكشاجم (ت ٣٦٠هـ):

(لقد بخلتُ حتى بطيف مسلّم عليّ، وقاليتُ رحمةً لنحيري:
أخاف على طيفي إذا جاء طارقاً وساذك أن يلقاه طيف رقيب)^(١١)

ثم نجدها عند المحسن التتوخي (ت ٣٨٤هـ): ((ولكن الطباع خست حتى في الحسد)^(١٢)

ونجد هذه الظاهرة عند ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) في مواضع متفرقة من القانون، ومنها حديثه عن الطفل: ((فإذا كانت بنيته غير متناسقة كان رديئاً حتى في فهمه وعقله))^(١٣)

وفي حديثه عن خواص نبات الإذخر: ((دهنه ينفع من الحكمة حتى في البهائم))^(١٤)

وفي حديثه عن ضرورة معرفة الطبيب المباشرة: ((فلا يحكم جزماً حتى في النبض أيضاً))^(١٥)

ونجد الظاهرة عند العميدي في حديثه عن المتنبّي (ت ٤٤٣هـ): ((ولولا أنه كان يجحد فضل من تقدمه من الشعراء وينكر حتى أسماءهم في محافل الرؤساء... لكان الناس يُغضون عن معانيه))^(١٦)

ثم نجدها في شعر أحمد بن يوسف المنازي (ت ٤٣٧هـ) مادحاً وواصفاً دوحة: ((نفى حتى الذباب الخضر منها ذباباً من حسامك ذو اخضرار))^(١٧)

بعد ذلك نجد الظاهرة عند أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) يشرح بيتاً للمتنبّي:

((ما زلت أطلب العفاف حتى في حال الخلوة مع الرقيب))^(١٨) كذلك نجدها في لزومياته:

وقد كذبوا حتى على الشمس أنها تهان إذا حان الشروق وتضرب^(١٩)

ونجدها عند ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ): ((كانت العرب لا تتكسب بالشعر، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً. وقصد حتى ملك العجم))^(٢٠)

ونجدها عند عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ): ((.....ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة))^(٢١)

ونجدها عند نصر الله بن قلاّس الإسكندري (ت ٥٦٧هـ):
((والخط حتى في الحروف مؤثراً يختص بالترقيق والتفخيم))^(٢٢)

ثم نجد الظاهرة في شعر أحمد بن عيسى الهاشمي (ت ٥٩٣هـ):
((لم أكتحل في صباح يوم أهرق فيه دم الحسين
إلا لحزني، وذاك أنسي سودت حتى بياض عيني))^(٢٣)

وفي أول القرن الهجري السابع نجدها عند كمال الدين الفارسي:
((وذلك غير مضر حتى في الحسابات))^(٢٤)

ثم نجدها في تاريخ ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)؛ ومنها:
((فأخذهم البربر وذبحوهم حتى النساء والصبيان))^(٢٥)
((وقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتى عند الضريح))^(٢٦)
((وقدّمه حتى على نفسه))^(٢٧)

ثم نجدها عند الوزير ابن شداد (ت ٦٣٢هـ): ((وكان للمسلمين لصوص يدخلون
إلى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال))^(٢٨)
ثم نجدها في شعر البهاء زهير (ت ٦٥٦هـ)؛ ومنها:

((واسـتـهـلك البـيـعُ حـتى طـراحتـى ولحافـى))^(٢٩)
((سجـدت له حـتى العـيـونُ مـهـابةً أو ما تـراها حين يُقـبـلُ تـطـرُقُ))^(٣٠)
((ومن أـجلـه أضـحى المـقـطـم شامخاً يـنـافـسُ حـتى طـورَ سـيـنا في القـدر))^(٣١)

ونجد عند الشاعر ابن باتكين أحد المتوفين في أول القرن الثامن، يهجو القاضي
ابن بنت الأعز، ساخرأ من اسمه:

((لاتعجبوا كثرة إسقاطه فإنه أسقط حتى أباه))^(٣٢)

ونجد هذه الظاهرة في شعر أحمد بن أبي عَزَقَةَ (ت ٧٠٨هـ):
((وَحَمَلْتُ مِنْ حُبِّكَ مَا لَوْ حُمِلْتُ شَمُّ الْجِبَالِ أَخْفَهَا لَمْ تَحْمِلِ
مَنْ حَيْفَ دَهْرٍ بِالْحَوَاثِ مُقَدِّمٍ حَتَّى عَلَى غِيلِ الْهَزْبِ الْمُسِيلِ))^(٣٣)

ونجدها كذلك عند ابن الطقطقى (ت ٧٠٩هـ)، ومنها: ((وقد كان الملوك يبالغون
في إقامة الهيبة والناموس، حتى يارتباط الأسود والقبيلة والنمور))^(٣٤)
وفي موضع آخر يقول: ((وخفي ذلك حتى على الصاحب علاء الدين))^(٣٥)
ثم نجدها في شعر محمد بن دانيال الكحال (ت ٧١٠هـ) يصف برذونه المثعب:
((يَجْفَلُ حَتَّى مِنَ الشَّعِيرِ فَمَا يَذُوقُ قَضَمًا إِلَّا مَعَ الْغُلَسِ))^(٣٦)

كذلك نجدها في شعر صفى الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ):
((وَأَعْرَضْتُ عَنْ طَيِّبِ الْهَنَاءِ لِأَنِّي نَقَمْتُ الرِّضَا حَتَّى عَلَى ضَاكِكِ الْمَزْنِ))^(٣٧)

كذلك نجدها في المؤلفات المختلفة للأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدي
(ت ٧٦٤هـ)، فمن ذلك ما جاء في حديثه عن تقديم السمع على البصر في
القرآن الكريم: ((قَدَّمَ السَّمْعَ عَلَى الْبَصَرِ حَتَّى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (صَمَّ بِكُمْ عَمَى)،
فَقَدَّمَ مَتَعَلَّقَ السَّمْعِ عَلَى مَتَعَلَّقِ الْعَيْنِ))^(٣٨)
وفي كتابه الوافي تكرر، ومن ذلك: ((رَأَيْتُ لَهُ عِدَّةَ تَصَانِيفٍ حَتَّى فِي
الْأَطْعِمَةِ))^(٣٩)

و ((وله أشياء من مراعاة الإعراب في لفظه حتى مع النساء))^(٤٠).

كذلك وردت عند ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): ((وفرضت المغارم حتى على
الحُجَّاج))^(٤١)

وتكررت هذه الظاهرة عند الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ). ومنها:
((وكان يؤثر على نفسه حتى بقميصه))^(٤٢)

((فوجدوا الماء جليداً حتى في القرب والزمزميات))^(٤٣)
بعد ذلك نجدها في تاريخ ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، ومنها ((وأخذوا حتى
رخام بيته))^(٤٤)

ومنها: ((ولعبت ممالك السلطان بالرمح بين مخاصمة، ولعب حتى
المعلمين))^(٤٥)

ثم نجدها عند الشاعر محمد بن عبد الكريم البسطي (ت ح ٨٩٠هـ):
((فأذهل الناس حتى عن مرادها واستقبلتني به الأشجان والغير))^(٤٦)

ثم نجد الظاهرة عند النهروالي (ت ٩٩٠هـ) الذي أرخ للفتح العثماني لليمن.
ففي حديثه عن والي جدة يمدحه قائلاً: ((.... أو أشار إلى الليل البهيم لانجاب،
مع عفاف حتى عن الطيف))^(٤٧)

وفي حديث عن أحد المقاومين للترك يقول: ((واستولى قطران الكلب)، على
(نراع الكلب)، وقطع الطريق إلى الترك من اليمن واليسار والقلب، ومنع حتى
الطائر أن يطير))^(٤٨)

وهي موجودة عند المقرئ (ت ١٠٤١هـ) ومن ذلك:

((ورعى الله من بان، وشاق حتى الرند والبان))^(٤٩)

((وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملوك حتى في الألقاب))^(٥٠)

وهي موجودة عند الجبرتي (ت ١٢٣٧هـ) مؤرخ الحملة الفرنسية وأول أيام محمد علي باشا في مصر، ومنها: ((وإذ هم بالخير أو عمل به أدخل الله البركة على أهل مملكته حتى في التجارات والزراعات))^(٥١)

ونجد الظاهرة في أقوم المسالك الذي ألفه خير الدين التونسي عام ١٨٦٧م: ((كما أشرت إلى ما كانت عليه أمة الإسلام المشهود لها حتى من مؤرخي أوربا الأعيان بسابقة التقدم في مضماري العرفان والعمران))^(٥٢)

ثم نجد حتى العاطفة على غير مذكور عند الكواكبي (ت ١٩٠٢م): ((كادت تجعل الغربيين أدرى منا حتى في مباني ديننا))^(٥٣)

ثم نجد الظاهرة عند الشيخ محمد عبده (ت ١٩٠٥م) في حديثه عن البيت: ((يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر، وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات في كل آن بسبب وبغير سبب، في الصباح وفي المساء حتى في الفراش))^(٥٤)

وهذه الظاهرة موجودة عند عباس محمود العقاد في أكثر من مؤلف، ومن ذلك: ((مثلهم في ذلك مثل السوائم والأوابد في حريتها، فإنها لا تفعل ما تريد علواً عن ربة الأوهام ونبواً عن أحكام التقاليد، بل لخلوها من قابلية التقيد حتى بالأوهام الباطلة))^(٥٥)

((...فإن من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكلف الجلد والسكون حتى في الفجائع الفادحة))^(٥٦)

((بل هو لم يكن ممثلاً حتى الثورة العربية التي كان زعيماً من زعمائها))^(٥٧)

ثم نجد الظاهرة عند أمين الريحاني في الكتاب الذي تحدث فيه عن حكام الجزيرة العربية (صدر أول مرة عام ١٩٢٤م)؛ ومنها: ((إن البساطة لتدنو في القصر من التقشف، فتبدو في السجاد العادي، وكراسي الخيزران، والدواوين المغطاة بقماش من القطن، والجدران العارية حتى من الآيات))^(٥٨)

ثم نجدها عند توفيق الحكيم: ((فأنا لم أحاول عقد صلات حتى مع من كان يجب أن أتصل بهم من أدباء وفنانين))^(٥٩)

ثم نجدها عند المؤرخ الأدبي الكبير شوقي ضيف: ((وهذا كله هزل ودعابة ودليل على أن المصريين لم ينسوا حتى في عصور الظلام ما طُبعوا عليه من التندر والفكاهة))^(٦٠)

ثم نجدها عند الفقيه اللغوي صبحي الصالح: ((إنّ لك أن تقدّر جسامه الخطأ الذي وقع فيه بروكلمان حين أطلق القول بأن اللغات السامية تخلو من الصياغة التركيبية، شاملاً بحكمه هذا حتى العربية))^(٦١)

ونجدها عند المؤرخ الأدبي محمد زغلول سلام في أكثر من كتاب، ومنها: ((ولم يسلم حتى الشعراء، من استخدام المصطلح))^(٦٢)

((واشتهر بروحه المرحّة وسخريته الضاحكة حتى في مجالس السلاطين))^(٦٣)
ونجدها عند القصصي يحيى حقي: ((ستبقى نظراته منكسرة حتى أمام جبرانه))^(٦٤)

ونجدها عند الناقد محمد أحمد العزب: ((...يتضح لنا أن التقيد بالخليل أو ترسم حدوده غير وارد حتى عند الأقدمين))^(٦٥)

كذلك نجدها عند الناقد ذي الرؤية الاجتماعية عبدالمحسن طه بدر (ت ١٩٩٠م)؛ ومنها:

((يلخص لنا صورة عن علاقاته الإنسانية حتى مع الأدباء))^(٦٦)

((تكون مجرد تصورات مثالية لم تحفر عميقاً حتى في نفوس أصحابها))^(٦٧)

ثم نجدها عند الباحث قحطان التميمي: ((ولعل من المبالغة الطريفة الخفيفة هذه الأبيات التي هجا بها الحمدوني أحدهم بالبخل، مصوراً إياه من خلال مشهد تمثيلي بعيداً في أنانيته، عاقاً، منبت الصلة حتى بأبيه وإخوته))^(٦٨)

ثم نجدها عند الفقيه الداعية محمد جواد مغنّية: ((فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)). أي: فإن لم يقولوا حتى هذه البديهة، وأبوا إلا الشرك والعناد، فأعرض عنهم، وقل لهم أنت ومن آمن بك: اشهدوا بأنا مسلمون((^(٦٩)) ونجدها أيضاً عند الناقد محمد فتوح أحمد: ((ألا يعني هذا أن ظواهر التقابل والازدواج تفرض نفسها حتى على أدق مكونات البنية الشعرية))(^(٧٠)) ثم نجدها عند المفكر خالص جلبي ((إن الشعور الداخلي يصب نفسه حتى إلى تعبيرات الوجه وحركات اليدين))(^(٧١)) ثم نجدها عند الطبيب والروائي نجيب الكيلاني: ((إن الحرية الحقيقة خبر على ورق حتى في أوروبا وأمريكا))(^(٧٢)) ثم نجدها عند اللغوي سمير ستيّية: ((يقولون بها الشعر، ويخطبون، وينافرون بعضهم بعضاً، ويستعملونها ليتقاهموا بها حتى في أحاديثهم))(^(٧٣)) ثم نجدها عند الاجتماعيين: إبراهيم بدران وسلوى الخماش، ومن ذلك: ((فهي إذا غضبت أو أصابها ظلم حتى من أقرب الناس إليها، تنهال عليه إما جهاراً وإما خفية بالدعوات))(^(٧٤)) ((ويساهم الزجالون والمؤلفون والمطربون والإذاعات العربية عامة في تأكيد دور الحسد حتى في المسائل العاطفية))(^(٧٥)) ونجدها عند الرسام محيي الدين اللباد: ((وفي تلك المفاصل التاريخية العظيمة يولد الرجال والفنانون العظام حتى من الحرف الصغيرة))(^(٧٦)) ثم نجدها عند الناقد الأدبي الكبير شكري عياد: ((ولكن الشاعر العبقرى يصنع الجمال حتى من القبح))(^(٧٧)) كذلك نجدها عند تلميذه الناقد عبد الحكيم راضي: ((هل ذلك هو سلوك الرجل الذي يرفض شعر الإسلاميين حتى في مجال الاحتجاج اللغوي))(^(٧٨))

ثم تجدها عند القانوني حسن الزين: ((...عندما ظهرت تصرفات الوالي الجديد وما حملت من مخالقات مستت حتى جوهر العقيدة، بما عبّرت عنه من فسق وفجور))^(٧٩)

ونختتم جملة هذه الشواهد على هذه الظاهرة الشائعة في كل صحيفة ومجلة وكتاب بما جاء عند المفكر محمد عمارة: ((...بل هم مأمورون بتعميم العدل حتى على الأعداء ومن يكرهون))^(٨٠)

وهكذا رأينا ظاهرة العطف وحتى قليلة في عصر الاحتجاج باللغة، ولم نعثر في كتابات هذا العصر على شاهد للعطف على غير مذكور، ثم لاحظنا بعد عصر الاحتجاج أن هذه الظاهرة بدأت تبرز شيئاً فشيئاً عند كثير من المؤلفين في شتى فنون التأليف في كل القرون السابقة على قرننا، وهي الآن ليست بالظاهرة القليلة الورد، بل هي شائعة لا يكاد ينجو من استخدامها أحد.

لذلك نظرت لجنة الأصول التابعة لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورة المؤتمر الثالثة والأربعين (١٩٧٧/٣/٧)، في تعبيرات مثل:

- أ. الهزيمة تهدد إسرائيل، يعترف بذلك حتى المتعاطفون معها.
 - ب. مجلس الأمن ينعقد وينفضّ دون أن يُعرض عليه حتى مشروع قرار.
 - ج. لم يقرأ حتى الصحف.
 - د. لم ينجح في أن يكون حتى عضواً في مجلس القرية.
 - هـ. تركّ الخلاف أثره حتى على العلاقات الثقافية بين البلدين.
- ورأت اللجنة أن حتى في الأمثلة السابقة عاطفة والمعطوف عليه محذوف من المقام^(٨١).

ولسنا في حاجة للقول بأن هذه الظاهرة عريقة في العربية، كما هو واضح من الشواهد الكثيرة التي أوردناها، وبذلك يسقط القول باستيراد هذه الظاهرة من اللغة الإنكليزية عن طريق الترجمة. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الحواشي والإحالات والمراجع

(١) انظر في ذلك:

- كتاب سيبويه، تحـ عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م-١٩٧٩م، ج ١/٩٦، ٩٧، و ج ٢/٣٨٣ و ٣/١٧-٢٨.
- المقتضب للمبرد، تحـ محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧٩م، ج ٢/٣٨-٤٠.
- كتاب المقتصد في شرح الإيضاح لعبدالقاهر الجرجاني، تحـ كاظم بحر المرجان، بغداد: الرشيد للنشر ١٩٨٣م، ص ٨٤٠-٨٤٤.
- كتاب الحل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل، لابن السيد البطليوسي، تحـ سعيد عبدالكريم سعودي، بغداد: الرشيد للنشر ١٩٨٠م، ص ١٩٧-٢٠٠.
- كشف المشكل في النحو والتصريف، لعلي بن سليمان الحيدرة، تحـ هادي عطية مطر، بغداد: وزارة الأوقاف ١٩٨٥م، ج ١/٦٢٧-٦٢٨.
- (٢) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الغيث المسجم شرح لأمية العجم، بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٧٥م، ج ١/١٦٢-١٦٣.
- (٣) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، القاهرة: ط السعادة، ١٣٧هـ، ج ١/١٦١-١٦٢.
- (٤) محمد عبدالخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة: دار الحديث، ق ١-٢ ص ١٣٧.
- (٥) انظر في ذلك:
- شرح كافية ابن الحاجب، لرضي الدين الاسترأبادي، إستانبول: الشركة الصحافية العثمانية ١٣١٠هـ، ج ٢/٣٦٩.
- رصف المبانى في شرح حروف المعاني للمالقي، تحـ أحمد محمد الخراط، دمشق: مجمع اللغة العربية ١٩٧٥م، ص ١٨١.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحـ مصطفى النعاس، القاهرة: ١٩٨٧م، ج ٢/٦٤٦-٦٤٧.

- (٦) محمد حسن عبدالعزيز: الخواص التركيبية للجملة في اللغة العربية كما تمثلها لغة الصحافة المعاصرة في مصر، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص ١١٢.
- (٧) أحمد بن محمد المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر ١٩٧٢-٦٨م، ح ٢/٢٥٦.
- (٨) عريب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبري (ضمن ذيول تاريخ الطبري) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف ١٩٩٠م، ح ١١/٢٣٦.
- (٩) أبو العلاء المعري: معجز أحمد، شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي، تح: عبدالمجيد دياب، القاهرة: دار المعارف ٨٦-١٩٨٨م، ح ٣/١٥٠ و ١٥١.
- (١٠) علي بن اسمعيل بن سيده: شرح مشكل شعر المتنبّي، تح: محمد رضوان الداية، دمشق: دار الماسمون ١٩٧٥م، ص ١٥٥. وانظر بيتاً آخر وشرحه في: العكبري (٩) ح ٢/٣٤١.
- (١١) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الغيث المسجم شرح لأمية العجم، ح ١/٢٤٣.
- (١٢) أبو علي المحسن بن علي التتوخي: نوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح: عيود الشالحي المحامي، بيروت: دار صادر ١٩٧١م، ح ١/٢١.
- (١٣) الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا: القانون في الطب، القاهرة: ط الأميرية ١٢٨٤هـ، ح ١/١٢٠.
- (١٤) المصدر السابق، ح ٢٤٧، وانظر ح ٣ ادوارد القش، بيروت: مؤسسة عز الدين ١٩٨٧م، ص ٨٢٨، ١١٩٠.
- (١٥) المصدر السابق، ح ٤ (تح ادوارد القش) ص ١٨٦٦.
- (١٦) أبو سعد محمد بن أحمد العميدي: الإبانة عن سرقات المتنبّي، تح: إبراهيم الدسوقي البساطي، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٠م، ص ٢٤.
- (١٧) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، ح ٨ تح: محمد يوسف نجم، فيسبادن: فرانز شتاينر ١٩٧١م، ص ٢٨٥.
- (١٨) أبو العلاء المعري: معجز أحمد، ح ٣/٢٩٥.

- (١٩) أبو العلاء المعري: لزوم مالا يلزم، شرح نديم عدي، دمشق، دار طلاس ١٩٨٨م، حـ ٩١/١.
- (٢٠) أبو علي الحسن بن بن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحـ محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت: دار الجيل ١٩٧٢م، حـ ١٨١/١.
- (٢١) عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحـ هـ. ريتز، اسطنبول: وزارة المعارف ١٩٥٤م، ص ٢٩٧.
- (٢٢) الصفدي: الغيث المسجم، حـ ١٢٥/٢.
- (٢٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، حـ ٧ تحـ إحسان عباس، فيسبادن: فرانز شتاينر ١٩٦٩م، ص ٢٧٤.
- (٢٤) أبو الحسن كمال الدين الفارسي: تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر، تحـ مصطفى حجازي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م، ص ٢٨٣.
- (٢٥) عز الدين، علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، بعناية كارلوس جوهانز تورنيرج، بيروت: دار صادر ١٩٧٩م، حـ ٩، ٢١٧.
- (٢٦) المصدر السابق ح ١٠/٢٦٠.
- (٢٧) المصدر السابق ح ١٠/٢٦٩ وانظر أيضاً حـ ٣٢/١٢.
- (٢٨) بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحـ جمال الدين الشيال، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤م، ص ١٥٨.
- (٢٩) بهاء الدين زهير: ديوانه تحـ محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوي، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٧م، ص ١٧٣.
- (٣٠) المصدر السابق، ص ١٧٦.
- (٣١) المصدر السابق، ص ١٠ وانظر أيضاً ص ١٨١.
- (٣٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تصحيح سالم الكرنكوي، حيدر آباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٩-١٣٥٠هـ، حـ ٣٢٧/١.
- وانظر الصفدي: الوافي بالوفيات حـ ٨/٢١٧.
- (٣٣) إبراهيم بن مراد (محقق): مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشره، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦م، ص ١٦٧.

(٣٤) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت: دار صادر، ص ١٨.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٣.

(٣٦) المختار من شعر الحكيم بن دانيال، اختيار صلاح الدين الصفدي: تحـ محمد نايف الدليمي، الموصل: مكتبة بستان ١٩٧٩م، ص ٨٣ وانظر أيضاً ص ١٩٣.

(٣٧) صفي الدين الحلبي: ديوانه، بيروت: دار صادر، ص ٣٦٤، وانظر ص ٥٥٩.

(٣٨) صلاح الدين الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان، تحـ أحمد زكي بك، القاهرة: ط الجمالية ١٩١١م، ص ١٧.

(٣٩) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، ح ٣ تحـ س. ديدرينغ، فيسبادن: فرانز شتاينر ١٩٧٤، ص ١٦٣.

(٤٠) المصدر السابق ح ٩٠/٤، وانظر ص ١٨٦، وهناك أمثلة أخرى في الوافي ح ٣٥٤/٧ وحـ ١٢٠/٨.

(٤١) مقدمة ابن خلدون، تحـ علي عبدالواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر ٩٧م-١٩٨١م، ص ٧٣٣.

(٤٢) ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر بأبناء العمر، حيدر أباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية ٧٦م-١٩٧٦م ح ٦٥/١.

(٤٣) المصدر السابق، تحـ حسن حبشي، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٧٢م، ح ٢٥٤/٣، وتتنظر أمثلة أخرى في صفحات ٢٩، ٣٠، ١١٦، ١٩١.

(٤٤) أبو المجاسن جمال الدين يوسف بن تعري بردي: النجوم الزاهرة، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٠م، ح ٨٦/١٢.

(٤٥) المصدر السابق، ح ١٤، تحـ فهم محمد شلتوت وجمال محمد محرز، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧١م، ص ١٠١، وانظر ص ٢٩٩. وتتنظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه في:

- ح ١٥ تحـ إبراهيم علي طرخان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧١م، ص ١٣٣، ١٧٤، ٤٠٠، ٥١٤ وحـ ١٦ تحـ جمال الدين الشيال وفهم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م، ص ١٥٨.

- (٤٦) محمد ابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٨٥م، ص ٦٤.
- (٤٧) قطب الدين محمد بن محمد النهروالي المكي: البرق اليماني في الفتح العثماني، المدينة المنورة، ط ٢، منشورات المدينة ١٩٨٦م، ص ٧-٨.
- (٤٨) المصدر السابق، ص ٣٨٨.
- (٤٩) المقرئ: نفح الطيب ج ١/١٦.
- (٥٠) المصدر السابق ج ١/٢١٣.
- (٥١) عبدالرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت: دار الجيل، ج ١/٢٢، وانظر على سبيل المثال ج ١/٤٠، ٦١٠، ٦٢٢ وج ٢/٢٧، ٥٥ وج ٣/١٧، ٥٣، ٦٢٣.
- (٥٢) خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحد معن زيادة، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٥م، ص ١٤٧.
- (٥٣) عبدالرحمن الكواكبي: أم القرى، ط ٢، حلب: المطبعة العمومية ١٩٥٩م، ص ٥٥ وانظر مثلاً ص ٥٩، ٦١، ٨٤، ٩٠، ١٣٤، ١٤٨، ١٨٥.
- (٥٤) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - ج ٢ (الكتابات الاجتماعية) حققها وقدم لها محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢م، ص ٧٦.
- (٥٥) عباس محمود العقاد: الفصول، ط ٢، بيروت: دار الكتاب العربي، ص ١٧٥، وانظر ص ١٨٩، ٢٦٧.
- (٥٦) عباس محمود العقاد: جحا الضاحك المضحك، بيروت المكتبة العصرية: ص ٢٧.
- (٥٧) عباس محمود العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم في الجبل الماضي، ط ٣، القاهرة: النهضة المصرية، ص ١٣ وانظر مثلاً ص ٥٥، ١٥٤.
- (٥٨) أمين الريحانسي: ملوك العرب، بيروت: دار الجيل ١٩٨٧م، ص ٢٦ وانظر مثلاً ص ٩، ١٥، ٤٣، ٥٩، ٦٠، ٧٢، ٩٧، ١٢٦، ١٢٨.
- (٥٩) توفيق الحكيم: سجن العمر، القاهرة: مكتبة الآداب، ص ٢٨٥.
- (٦٠) شوقي ضيف: الفكاهة في مصر، ط ٢، القاهرة: دار المعارف (اقرأ) ١٩٨٥م، ص ١١٠.

- (٦١) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، ط ١٠، بيروت: العلم للملايين ١٩٨٣م، ص ٣٢٩ وانظر مثلاً ص ١٢٦، ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٣٥.
- (٦٢) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م، ج ٢/١٠٩، وانظر ج ٢/١١٤، ١٦٧، ٢٣١.
- (٦٣) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، إسكندرية: منشأة المعارف ١٩٩٦م، ج ٣/١٨٧، وانظر ج ٣/٢١٤، ٣٤٦. وانظر للمؤلف أيضاً: الأدب في العصر الفاطمي، الكتابة والكتاب، إسكندرية: منشأة المعارف ١٩٩٣م، ص ٢١٦.
- (٦٤) يحيى حقي: ناس في الظل، القاهرة: كتاب الجمهورية ١٩٧١م، ص ٢٢ وانظر ص ١٠٦.
- (٦٥) محمد أحمد العزب: ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، القاهرة: دار المعارف (اقرأ) ١٩٨٧م، ص ٦٢، وانظر مثلاً ص ١٠٩، ١٠٨، ١١٦، ١٨٠.
- (٦٦) عبدالمحسن طه بدر: الروائي والأرض، ط ٢، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٩م، ص ٩٠.
- (٦٧) المرجع نفسه، ص ٤٥، وانظر مثلاً ص ١٠٣، ١٠٧، ١١٨، ١٢٤، ١٢٥.
- (٦٨) قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، بيروت، دار المسيرة، ص ٤٠٦.
- (٦٩) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، بيروت، ج ١، ٢٦٨.
- (٧٠) محمد فتوح أحمد: شعر المتنبي - قراءة أخرى، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٣م، ص ٧٠، ص ٧٠، وانظر أيضاً ص ٦١.
- (٧١) خالص جليبي: في النقد الذاتي، ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، بيروت: الرسالة ١٩٨٤م، ص ١١٠، و ص ١٢٦، ٢٣٥، ٢٥٧، ٢٧٦.
- (٧٢) نجيب الكيلاني: لمحات من حياتي، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م، ح ١/٧ وانظر مثلاً ح ١/٧٧، ١٧٣، و ح ٢/٢١٥.
- (٧٣) سمير شريف ستيبي: الازدواجية في اللغة العربية، (ضمن ندوة الازدواجية في اللغة العربية) عمان، مجمع اللغة العربية الأردني ١٩٨٨م، ص ١٤٠.
- (٧٤) إبراهيم بدران وسلوى الخماش: دراسات في العقلية العربية - ط ٣، بيروت: دار الحقيقة ١٩٨٨م، ص ٢٠٥.
- (٧٥) المرجع نفسه ص ٢٥٧.
- (٧٦) محيي الدين اللباد: نظر، ط ٢، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع ١٩٩١م، ص ٤٣، وانظر ص ٦٧.
- (٧٧) محمد شكري عبّاد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، الكويت: عالم المعرفة ١٩٩٣م، ص ١٠٧، وانظر ص ٢١٢.

(٧٨) عبدالحكيم راضي: النقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي - محاولة لقراءة جديدة، القاهرة: دار الشايب ٩٣م، ص ٢٠، وانظر ص ٢٢٥.

(٧٩) حسن الزين: علي بن أبي طالب وتجربة الحكم، بيروت: دار الفكر الحديث، ١٩٩٤م، ٢٣، وانظر مثلاً ص ٦٧، ١٣٤، ١٤٤، ١٤٧.

(٨٠) محمد عمارة: مفهوم الحوار عند جارودي، مجلة العربي، الكويت، العدد ٤٦٢، مايو ١٩٩٧م، ص ١٥٤ ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، كتاب في أصول اللغة، ح ٣ ص ١٣٠ (١٩٨٣م).

(٨١) محمد العدناني: معجم الأعلام اللغوية المعاصرة، بيروت: مكتبة لبنان ١٩٨٤م، ص ١٤٤.

سمات العلماء الأدبي والفكري

في القرن الثامن الهجري

الأستاذ هلال ناجي

بدأ الغزو في القرن الثامن الهجري الفرنجي الصليبي عام ٤٨٨هـ وانتهى عام ٦٩٠هـ ، أي أنه جاوز القرنين دكّ خلاله المغول أسوار بغداد قادمين من المشرق ودمّروا حضارة العراق سنة ٦٥٦هـ ، وانطلقوا نحو بلاد الشام عاصفين بإرثنا الأدبي والعلمي والحضاري . وهكذا كان المشرق العربي نهباً لغزاة محتلين من غربه وشماله وشرقه . وتحالف التتار والفرنج والكرج والروم غير مرة لاحتلال أرضنا وتدمير إرثنا الحضاري، حتى كانت نهاية الغزاة المغول في معركة " عين جالوت " الخالدة . إن حروباً استمرت قرنين من الزمن هما القرنان السادس والسابع، وغزواً استيطانياً مريعاً قد دَمَّرَ دونما شك الكثير من موروثنا الأدبي والعلمي والحضاري ومع إطلالة القرن الثامن الهجري أدرك الأدباء والعلماء والمؤرخون العرب المسلمون أهمية الحفاظ على هذا التراث العربي الإسلامي العظيم، فنَهَدُوا إلى تصنيف موسوعات كبرى وفنون علمية حفاظاً عليه من الضياع والتبدد، وهكذا بدأ عصر الموسوعات والمتون العلمية والشروح على المتون، وهي السمات البارزة في النتاج الأدبي والفكري خلال القرن الثامن الهجري، مؤمنين بضرورة انتفاع الخلف من معارف السلف وما أبدعته عقولهم، وليقوموا هم بتطوير ما وصلهم شرحاً وتفسيراً .

وأنا في الأصل رجل قانون لا أُلقي الكلام على عواهنه، وإنما أعضده بالدليل والحجة والبرهان، من أجل ذلك سأبسط صورة الحركة الفكرية في القرن الثامن الهجري ليتضح بالدليل العلمي خطأ تسمية هذا القرن والقرن الذي سبقه بـ " الفترة المظلمة " .

فأما أنه قرن الموسوعات الكبرى فحسبنا شاهداً عليه:

أولاً: موسوعة "نهاية الأرب في فنون الأدب" لأحمد بن عبد الوهاب النويري القريشي (ت ٧٣٣هـ) وقد طبع منه بمصر حتى الآن أكثر من ثلاثين مجلداً.

ثانياً: موسوعة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لأحمد بن يحيى بن فضل العمري (ت ٧٤٩هـ)، وهو في الأصل كتاب في الجغرافية وتقويم البلدان، لكنه تضمن كتباً مبسوبة في التاريخ والتراجم ومختار الشعر والكلام على النبات والحيوان والإنسان، فهي موسوعة لا غنى لباحث في الآداب عنها. وقد طبعها بالتصوير المستعرب التركي العلامة فؤاد سزكين في بضعة وعشرين مجلداً.

ثالثاً: موسوعة "مباهج الفكر ومناهج العبر" لمحمد بن إبراهيم الأنصاري الشهير بالوطواط (ت ٧١٨هـ). وهي موسوعة وقعت في أربعة مجلدات، خصص الأول للسماء والكواكب والآثار والأيام، والثاني: للأرض، والثالث للحيوان والرابع للنبات.

وما زالت هذه الموسوعة مخطوطة حتى اليوم.

والقرن الثامن أيضاً كان قرن "المتون العلمية" المتخصصة. واكتفي هنا بذكر بعضها مما صنفه العراقيون من هذه المتون:

١- "الكافية البيديعية في علوم البلاغة ومحاسب البديع" لصفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠هـ) وهي منظومة في مدح الرسول الأعظم تضم مائة وخمسة وأربعين بيتاً في البحر البسيط وتشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسن البديع. وهي تمثل استدراكاً رائعاً على كتاب "تحرير التحرير" لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، وقد شرحها ناظمها وطبع المتن والشرح بتدقيق نسيب نشاوي في دمشق سنة ١٩٨٣.

٢- منظومة "لوامع الأنوار في نظم غريب الموطأ وصحيح مسلم" لابن رضوان الموصلي محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٧٧٤هـ) . ونسخة المؤلف ما زالت مخطوطة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد.

٣- "نهج الرشاد في نظم الاعتقاد" ليوسف بن محمد العبادي العقيلي السُرْمَرِي (ت ٧٧٦هـ) وهي أرجوزة في الفقه الحنبلي، نشرتها محققة في العدد الأول من مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية- بغداد ١٩٩٣ . ولهذا العالم متن منظوم آخر في ألف بيت عنوانه "نظم الغريب في علم الحديث".

٤- منظومة "أنيس الغريب وجليس الأريب" وهي في غريب القرآن، ومنها تحقيقات لغوية بالغة الأهمية، نظمها نصر الله أحمد بن محمد التستري البغدادي المعروف بالجلال البغدادي (٧٣٣-٨١٢هـ) وكانت منه مخطوطة بمكتبة المرحوم عباس العزاوي.

٥- ألفية في الخط والكتابة عنوانها "العناية الربانية في الطريقة الشعبانية" وألفية في النحو عنوانها "كفاية الغلام في إعراب الكلام" وألفية في العروض والقوافي عنوانها "الوجه الجميل في علم الخليل" . هذه الألفيات الثلاث نظمها زين الدين شعبان بن محمد الأثاري القرشي الموصلي مولدا المصري مدفناً (٧٦٥-٨٢٨هـ) وكلها مما نظمها في القرن الثامن الهجري حسبما وجدت في مخطوطاتها . وكنت نشرت ألفية الخط في بغداد سنة ١٩٧٩، وألفية النحو في بيروت سنة ١٩٨٧ بمشاركة أخي الدكتور زهير زاهد، وألفية العروض والقوافي في بيروت سنة ١٩٩٧ .

٦- منظومة في القراءات على وزن الشاطبية، ونظم "النافع" في الفقه وكلاهما لفخر الدين بن النصيح العراقي (ت ٧٥٥هـ) .

٧- " أرجوزة الأنغام " وهي منظومة في الموسيقى نظمها بدر الدين محمد بن على الأربلي سنة ٧٢٩هـ، ونشرها المرحوم عباس العزاوي في كتابه "الموسيقى العراقية".

٨- " إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد " لمحمد بن إبراهيم الأنصاري السنجاري الشهير بابن الأكفاني (ت ٧٤٩ هـ) - نشرها الشيخ طاهر الجزائري - بيروت ١٩٠٤.

٩- الرسالة العضدية في الوضع لعبد الرحمن بن أحمد الأيجي (ت ٧٥٦ هـ)، وهي متن علمي يعين ألفاظ اللغة من حيث الوضع.

ومن غير العراقيين:

١٠- عبد الله بن يوسف بن أحمد الشهير بابن هشام (٧٠٨-٧٦١هـ) ومولده ووفاته بمصر. قال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه. من تصانيفه المطبوعة: "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" و" أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك" و" موقد الأذهان وموقف الوسنان " وشدور الذهب في معرفة كلام العرب " و" الإعراب عن قواعد الإعراب " و" قطر الندى وبل الصدى " و" اعتراض الشرط على الشرط " و" إقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل " و" تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد " و" الجامع الصغير في النحو " و" شرح قصيدة بانث سعاد " و" شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية " و" فوح الشذا بمسألة كذا " و مسألة الحكمة في تذكير قريب في قوله تعالى " (إن رحمة الله قريب من المحسنين) " و" المسائل السفيرية في النحو " و" مسائل في إعراب القرآن ".

١١- ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٧٦٩ هـ) وكان إماماً في النحو والبلاغة وله " شرح ألفية ابن مالك " وبه اشتهر.

وانماز القرن الثامن أيضاً، بأنه القرن الذي صُنِّفَتْ فيه أكبر موسوعات التراجم والسير في المكتبة على الإطلاق . فيه صنَّف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٧٦هـ) موسوعته الضخمة " الوافي بالوفيات " وقد طبع منها حتى اليوم أكثر من عشرين جزءاً.

وفيه صنَّف محمد بن أحمد بن الذهبي (ت ٧٤٨هـ) موسوعته المعنونة " سير أعلام النبلاء " وقد طبعت في خمسة وعشرين مجلداً وموسوعته الصغرى " العبر في خبر من غبر " في خمسة أجزاء

وفيه صنَّف محمد بن شاکر الکتبي (ت ٧٦٤هـ) موسوعته: " فوات الوفيات " وقد حققها إحسان عباس وأخرجها في خمسة أجزاء. و" عيون التواريخ" و هو كتاب تراجم أيضاً نشرت منه المؤرخة نبيلة عبد المنعم عدة أجزاء بعضها بالمشاركة، وما زال الباقي وهو الأكثر ينتظر النشر .

إن هذه الموسوعات وإن كانت كتب سير وتراجم إلا أنها طفحت بنفائس الشعر والنثر والأخبار الأدبية، فهي كتب تاريخ وأدب دون شك . ولا بُدَّ لنا ونحن في معرض الحديث عن موسوعات التراجم والسير المصنفة في القرن الثامن أن نشير إلي أن ابن الفوطي عبد الرزاق بن أحمد الشيباني (٦٤٢-٧٢٣هـ) صنَّف في القرن المذكور أوسع معاجم الألقاب: قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ما نصه: " كتب من التواريخ ما لا يوصف و مصنفاته وقُرُ بعير . ثم عمل تاريخاً في خمسين مجلداً أسماه " مجمع الآداب في معجم الأسماء على معجم الألقاب " . وهذا المعجم العجيب شاء القدر أن يسلم الجزء الرابع منه، فنشره العلامة مصطفى جواد بدمشق في أربعة مجلدات ضخام، فكيف كان الأمر لو وصلنا المعجم كاملاً؟ ثم إن أوفى موسوعة في أسماء رجال الحديث صنَّفها الحافظ يوسف المزي (ت ٧٤٢هـ) في هذا القرن بعنوان " تهذيب الكمال في أسماء الرجال " وقد طبعه بشار عواد معروف في خمسة وثلاثين مجلداً.

أكثر من هذا أن جلّ "كتب الطبقات" صُنِفَتْ في هذا القرن ومنها:

وفي ميدان البلاغة صنف جلال الدين القزويني كتابيه : تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي والإيضاح في علوم البلاغة، ونالا شهرة واسعة حتى يومنا هذا. ومصنفهما واسمه محمد بن عبد الرحمن لم يكن أعجماً حسبما توهم نسبته، وإنما هو عربي من بني عجل موصلى المولد وتوفي في دمشق سنة ٧٣٩هـ.

197

وأُمثِّلَ لذلك أيضاً: بالغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي، وبتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي أيضاً، وبشرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري (ت ٧٦٨هـ) .

ويسيل بنا الحديث إلى معاجم اللغة العربية لنجد:

أن ابن منظور الإفريقي التونسي (ت ٧١١هـ) صَنَّفَ لسان العرب، وهو أضخم معاجم العربية ومأله بالشواهد الشعرية مما لا مثيل له في بقية المعاجم السابقة عليه، صَنَّفَه في هذا القرن. وكذلك صنع أحمد بن محمد الفيومي (ت ٧٧٠هـ) معجمه " المصباح المنير " في القرن الثامن أيضاً، وكذلك صنع الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) قاموسه المحيط فيه أيضاً.

وثمة كلمة تخص الشعر العربي بالذات: إن كتب المختارات الشعرية ابتداءً من المفضليات فالأصمعيات، فالمختارات التي اصطلح على تسميتها بالحماسات مثل حماسة أبي تمام وحماسة البحتري والشجري والوزني والبصري، وكتب المختارات الشعرية التي سميت بأسماء أخرى مثل منتهى الطالب والتذكرة السعدية والتذكرة الفخرية، كل هذه المختارات والحماسات والتذكرات ليس فيها من " الشعر الصافي " كما يسميه لامارتين، وهو الشعر الخالد غير المرتبط بالأشخاص أو الأحداث أو المناسبات إلا القليل. لكن هذا القرن انماز بكتاب " مختارات شعرية " كان كله من الشعر الصافي الخالد عبر الزمن، وأعني به كتاب " حدائق الأنوار وبدائع الأشعار " لجنيد بن محمود بن محمد الذي انتهى من تصنيفه سنة ٧٩٠هـ . لقد اختار مصنفه أكثر من ثمانمائة مقطعة ثلثها في الربيع ومظاهره وثلثها في وصف الأزهار زهرة زهرة وثلثها في وصف الثمار ثمرة ثمرة.

وقد أسعدني الحظ بتحقيق هذا الكتاب ونشره في بيروت سنة ١٩٩٥، بعد معاناة استمرت عشرين عاماً معتمداً نسخة مخطوطة فريدة في الدنيا.

وأضيف أن المكتبة الشعرية العربية تعتز بكتب التشبيهات، وقد طبعت منها ثلاثة: تشبيهات ابن أبي عون إبراهيم بن محمد (ت ٣٢٢هـ) بتحقيق محمد عبد المعيد خان، وغرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات لابن ظافر الأزدي (٦٢٣هـ) بتحقيق مصطفى الصاوي وتشبيهات أهل الأندلس لابن الكتاني (ت في حدود ٤٢٠هـ) بتحقيق إحسان عباس، لكن القرن الثامن هذا خلف لنا أوسع وأمتع كتب التشبيهات الشعرية وعنوانه "الكشف والتنبية عن الوصف والتشبيه" صنفه الصفدي. وقد حققته عبر عقدين من السنين ودفعته إلى المطبعة. جدير بالذكر أن أدباء الأندلس وهم يرون تساقط المدن الأندلسية بأيدي القشتاليين الإسبان، بادروا إلى تصنيف الموسوعات في شتى فنون الأدب وأكتفى الإشارة إلى موسوعتين من كتب المختارات الشعرية هما: جيش التوشيح للسان الدين بن الخطيب (٧٦هـ) و(عدة الجليس) لابن بشري الغرناطي، وكلاهما من وفيات القرن الثامن. وقد ضم كل كتاب منهما مجموعة متميزة من الموشحات الأندلسية.

هذا عدا كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" وهو كتاب تراجم وسير طبعت منه أجزاء أربعة.

لقد كان عبد العزيز بن سرايا الطائي الحلبي الشهير بصفى الدين (ت ٧٥٠هـ)، أبرز شعراء القرن الثامن الهجري على امتداد الوطن العربي. وكان شاعراً كبيراً ومصنفاً شهيراً أيضاً. أما أنه شاعر كبير فيشهد على ذلك ديوانه الضخم الذي لم يطبع حتى الآن طبعة علمية. وأما أنه مصنف شهير فذاك ما تدل عليه كتبه الثلاثة:

الأول: العاقل الحالي والمرخص الغالي: وقد نشره المستشرق ولهام هونرباخ في ويسبادن بألمانيا سنة ١٩٥٥ ثم أعاد نشره صديقنا حسين نصار في مصر ١٩٨١ ثم أعيد نشر طبعة حسين نصار في بغداد أيضاً. وقد خصه

صفي الدين بالشعر الملحون: الزجل والمواليا و الكان وكان والقوما . وهو أهم كتاب قديم تعرض لهذه الفنون . لكنه لم يدرس حتى الآن دراسة علمية تليق به .

والثاني: مخطوطة كتابه " المثلث والمثاني في المعالي والمعاني " ومن نسخة في دمشق وأخرى في التيمورية بالقاهرة، وما زال الكتاب يحن إلى التحقيق والنشر .

والثالث: " شرح الكافية البديعية " التي نشرت محققة كما ذكرنا فيما تقدم لكنها لم تدرس حتى اليوم دراسة علمية .

ويبقى الحديث بعد هذا عن النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري .

إن النقد الأدبي والتأريخ له قد تحولاً بعد غياب عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) إلى علم بصوغه المنطق وتغذيته الفاسقة حتى استحال إلى جملة من القواعد الجافة غاب معها الذوق السليم . وكان ظهور ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) "ومثله السائر" بمثابة انتفاضة جديدة للنقد الأدبي . ثم عاد النقد بعده إلى رقدته .

حتى إذا جاء الصفدي في القرن الثامن أعاد للنقد الأدبي نكهته وروحه حين جعل للذوق الأدبي مكانته الرفيعة في العمل النقدي . وقد جسد آراءه هذه في ثلاثة كتب:

الغيث المسجم في شرح لامية العجم - ولم يطبع حتى اليوم طبعة علمية .
ونصرة الثائر على المثل السائر - وقد طبع بتحقيق محمد علي سلطاني طبعة علمية .

والتأليف: كتاب "الاقتصار على جواهر السلك في الانتصار لابن سناء الملك " وهو مخطوط، حققته لأول مرة بمشاركة الدكتورة السيدة ظمياء محمد عباس وهو في طريقه إلى القراء إن شاء الله .
وتمثل هذه الكتب الثلاثة قمة تطور النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري .
هذه أهم سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجري . وبعد :
فهل يصح بعد هذا كله القول : إن القرن الثامن الهجري هو من قرون الفترة المظلمة ؟ وهل يصح أن ننظر إلى الحالة الأدبية والفكرية بالمنظار السياسي وأن نقيسها عليه ؟